

النظر الذهني في عصر ما قبل الإسلام

د. عبد القادر فيدوح*

كانت - والى وقت قريب - في دراسات الأدب العربي القديم فكرة خاطئة مؤداها أن القصيدة العربية هي عبارة عن مجموعة أبيات مفردة، مجردة من الخيال خالية من أي مستوى فكري، لا شيء، إلا لأنها تمثل بدائية الإنسان العربي في هذا العصر، وأن هذا «العربي ضعيف الخيال جامد العواطف» (١)، وحتى إذا تخيل وبدأ منه شيء من التفكير فلا يعدو أن يكون ذلك تصوراً سطحيًا، نابعا من عواطفه ومشاعره لا غير! ••

وللرد على مثل هذه المزاعم والاطلاع على مستوى التفكير العربي خلال هذا العصر، لا بد من إعطاء نظرة مركزة نلم بها المامة سريعة عن صلة العرب بغيرهم من الأمم الأخرى، لأن معظم الدراسات القديمة تقرر أن الجزيرة العربية قبل الإسلام كانت منعزلة عن العالم، وبعدها يمكن الحكم على ما في الدراسات القديمة من أحكام، ومدى صحتها أو مجافاتها للحقيقة •

كانت الجزيرة العربية على صلة متينة بالأمم الأخرى، وقد خضعت لعدة عوامل نتيجة لهذه الصلات وما نتج عنها من التأثيرات الحضارية التي نقلت إلى العرب ألواناً كثيرة من جوانبها، خاصة منها الثقافية والدينية •

وكل ما حظيت به الجزيرة العربية من دراسات مفصلة لتاريخ العرب القديم لا يتعدى القرن العاشر قبل الميلاد، خاصة في مجال الاحتكاكات والعلاقات مع غيرهم مثل العبرانيين، والآشوريين والبابليين، والفرس، وعلاقاتهم أيضاً مع الحضارات الغربية (حضارة اليونان في عهد الاسكندر الكبير ٣٥٦ - ٣٢٣ ق م) التي امتدت حتى ظهور العصر الامبراطوري

(*) باحث من الجزائر - استاذ في جامعة وهران •

الروماني قبل نهاية القرن الأول ق.م ، حيث اتجهت بأنظارها الى شبه الجزيرة العربية ، وكان هناك اعتباران وراء حملة الرومان على الجزيرة العربية « أحدهما هو السيطرة على مداخل البحر الأحمر اما عن طريق كسب العرب في صفهم ، واما باخضاعهم لهم . والاعتبار الآخر هو ما سمعه « أغسطس » (أول الأباطرة الرومان) عن الثروة الهائلة لهذه المنطقة التي يكثر فيها الطيوب والتوابل ، الأمر الذي أغراه بارسال هذه الحملة حتى يتمكن من أن يتعامل معهم كأصدقاء أغنياء ، أو أن يسيطر حتى يتمكن من أن يتعامل معهم كأعداء أغنياء » (٢) .

ان الجزيرة العربية في تاريخها القديم شهدت أحداثاً سياسية استمرت زمناً طويلاً ، سواء مع الحضارات الشرقية أو مع القوتين العظيمتين اللتين كانتا تجاوران شبه الجزيرة العربية غرباً (اليونان والرومان) الى أن تطورت هذه الأحداث على شكل جديد بين إمبراطوريتين عظيمتين « تحيطان بشبه الجزيرة العربية من الشرق ومن الغرب ، رغم استمرار ما بينهما من توتر كان يصل الى الصدام العسكري السافر في بعض الأحيان (كما حدث على سبيل المثال في أواسط القرن السادس حين هاجم الإمبراطور الفارسي خسرو « كسرى » أنوشروان ، أراضي الإمبراطورية الرومانية فاجتاح سورية وأسقط أنطاكية ودمرها عن آخرها) الا أن ظروفًا جديدة كانت قد ظهرت في غضون القرن الثالث الميلادي أدت الى اعتماد هاتين الإمبراطوريتين على إمارتين عربيتين حديثتين كل منهما تتبع قوة من القوتين الكبيرتين وتدافع عن حدود هذه القوة في مجابهة القوة الأخرى ، وفي بعض الأحيان كان الأمر ينتهي بأن ينحصر الصراع بين هاتين الإمارتين نفسيهما ، دفاعاً عن مصالح القوى الكبرى » (٣) .

وكان من وراء هذه المشاهدات بين العرب وهذه القوات الأجنبية أن جلبت معها جوانب من - هذه الحضارات الشرقية والغربية - دياناتها ومعتقداتها ، خاصة منها النصرانية واليهودية والمجوسية ، علماً بأن هذه الديانات كانت قد دخلت الى الجزيرة العربية قبل هذا التاريخ بآمد بعيد عن طريق التجارة الى أن توسعت معارفها مع هذه الحروب ، حيث كانت هذه الجزيرة طريقاً عظيماً للتجارة بين الأمم المجاورة لها ، وكانت مكة على وجه الخصوص قاعدة ينطلق منها العرب لتجارتهم « وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم في كثير من شؤونهم ، حتى فيما يترفهون به - الحرير - وحتى يستظهر بعض مؤرخي الفرنج أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية وللتجسس على أحوال العرب ، كذلك كان فيها أحباش ينظرون في مصالح قومهم التجارية » (٤) .

وكان المبشرون يرافقون هذه الحملات العسكرية والتجارية، وقد استطاعوا أن يؤثروا في نفوس كثير من العرب ، ويدخلوهم في معتقداتهم ، فلم يعبأوا بالمصاعب والمشقات التي كانوا يتعرضون لها ، فدخلوا في مواضع نائية في جزيرة العرب ، ومنهم من رافقوا الأعراب، وعاشوا عيشتهم ، وجاوروهم في طراز حياتهم فسكنوا معهم الخيام حتى عرفوا بأساقفة الخيام وبأساقفة أهل الوبر ، وبأساقفة القبائل الشرقية المتحالفة وبأساقفة العرب البادية. وقد

ذكر أن مطران (بصرى) كان يشرف على نحو عشرين أسقفاً انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان ، وقد نعتوا بالبعوث المذكورة ، لأنهم كانوا يعيشون في البادية مع القبائل عيشة أهل الوبر » (٥) .

وليس يعنيننا في تقرير هذا كله الا أن نصدق بوجود ارتباط الجزيرة العربية بغيرها من الأمم المجاورة لها منذ أمد بعيد امتد الى تاريخ ما قبل الميلاد ، وهو أمر لا يمكن انكاره . ودليلنا على ذلك هو استفادة العرب « بكلمات كثيرة فارسية ورومانية ومصرية ، وحبشية ، نقلها هؤلاء التجار وأمثالهم وأدخلوها في لغتهم وجعلوها جزءاً منها ، وأخضعوها لقوانينها ونطق بها القرآن » (٦) ، وهو ما يوضح لنا احتكاك العرب بغيرهم من جهة ، واستفادتهم - فوق أرباحهم التجارية - من معارف هذه الحضارات وآدابها ودياناتها من جهة أخرى ، مما ساعد العرب على خصب البنية العقلية ، فانعكس ذلك على تفتح القريحة بالشعر .

ربما كان أهم سبل الاتصال بين الحضارة العربية والحضارات المجاورة هو ما أشار اليه الدكتور ناصر الدين الأسد عند تعرضه لاتصال العرب بغيرهم عن طريق التجارة والأسواق والمواسم العربية ، حيث كان يؤمها - كذلك - بعض التجار الفرس والهنود والمصريين ، والرومان ، فكان كل أولئك يلتقون على صعيد واحد يأخذون ويعطون ، ويتبادلون ما عندهم من متاع وعروض ، ومن آراء وأفكار ومن مظاهر الحضارات ، بعد ذلك أشار الى خاصية أخرى تعد من أهم سبل هذا الاتصال وهي « هذه الجاليات الأجنبية الكبيرة التي كانت تقد على الجزيرة العربية فتقيم فيها وتطيل المقام ، بل تتخذ منها موطناً آخر تقضي فيه حياتها وتنشئ فيه ذريتها فكانت هذه الجاليات مختلفة الأديان والأجناس والأهداف : فمنهم النصراني واليهودي ، والمجوسي ، والوثني ، ومنهم الفارسي ، والرومي ، والمصري والهندي ، والحبشي ، ومنهم من جاء الجزيرة للتجارة فافتتح فيها دوراً للهو من غناء وشراب وبغاء ومنهم من جاءها فأنشأ فيها مستعمرات زراعية فعمر الأرض وأثارها هناك ، ومنهم من جاءها لغير هذا وذاك ، كالبعثات التبشيرية الدينية التي انبثت في أنحاء الجزيرة وجاست خلالها وانتشرت بين أهلها ، وأقامت البيع والصوامع والأديرة في المدن والصحراء » (٧) .

وأول ظاهرة تسترعي انتباهنا عند اطلاعنا على تاريخ الفكر الديني للأمم القديمة ، ومنها الأمة العربية ، أنها كانت على صلة وثيقة بعضها ببعض وتشترك في كثير من المبادئ . صحيح أن الدراسات الأثنولوجية تقدم بعض التعقيدات للوضع الديني في الجزيرة العربية في هذه الفترة الزمنية ، لكن ذلك لا يمنع من استنتاج أهم الأحداث ضمن هذه الشعائر والمعتقدات التي اشتركت فيها حضارات الأمم المجاورة للجزيرة العربية وتأثر الفكر الديني العربي « بالأفكار الدينية السامية في حضارات بلاد الرافدين ، وبصفة خاصة الحضارة البابلية الكلدانية وكذلك تأثره بالفكر الديني الآرامي » . وكان للقوافل التجارية المتجهة من اليمن الى مكة ويشرب ومنها الى مدائن صالح ومعان والبتراء وجرش ودمشق وتدمر وبلاد الرافدين ، أثرها البالغ في تحقيق الاتصال الحضاري المباشر بين تلك الحضارات (٨) .

وإذا تجاوزنا الاعتبارات العقائدية البدائية ، الطوطمية عند العربي نتيجة تطوره الفكري وفق تجاربه من الحياة الى معتقداته الوثنية فان أهم رواية تدل على ذلك هي ما قاله الأرزقي (٩) من « أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم الا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصباية بمكة والكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم الى أن كانوا يعبدون ما استحسنا من الحجارة وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة ، حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا الوثنية بدين ابراهيم واسماعيل وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات .

جاء في كتاب « الأصنام » لابن الكلبي عدد أسماء الأصنام التي عبدتها العرب في عصر ما قبل الاسلام أهمها : اللات ، والعزى ، ومناة وهي التي نزل فيها ذكر الله الحكيم « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » (١٠) ، فكان تفكيرهم باعتقادهم في عباداتهم لهذه الأصنام رمزاً لعبادة الله والتقرب اليه بواسطة بطرق مختلفة وعند فرق متعددة ، منها فرقة قالت : ليس لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته فعبدناها لتقربنا اليه تعالى كما قال حكاية عنهم : (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وفرقة قالت الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناماً على هيئة الملائكة ليقربونا الى الله . وفرقة قالت : جعلنا الأصنام قبله لنا في عبادة الله تعالى كما أن الكعبة قبله في عبادته . وفرقة اعتقدت أن على كل صنم شيطاناً موكلًا بأمر الله فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله ، والا أصابه شيطان بنكبة بأمر الله ، وهذا الصنف هم الذين أخبر عنهم التنزيل (١١) في قوله سبحانه (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون أن تتبعون الا رجلاً مسحوراً) .

كما تطورت وثنية العربي الى تقديسه للمظاهر الطبيعية حيث بلغ شعوره نحوها أقصى حد للأجلال والتعظيم . وكان تقديس العربي لهذه المظاهر الطبيعية المحيطة به كالكواكب وذلك ضمن تأثره بوثنية بلاد الرافدين التي كان مصدرها الصابئة المشركون كما أخذ عرب الشمال عن أهل اليمن عبادة هذه الكواكب المكونة من « ثالوث كوكبي » هو القمر ، الشمس ، الزهرة (١٢) وهذه هي الأجرام السماوية التي لفتت نظر الناس بتأثيرها عليهم في كل ما يحيط به ، فكان يرى فيها القوة السحرية في تفكيره مما جعله يؤلّتها ويعبدها ، وهي عبادة تبدو متطورة على ما كان عليه الانسان البدائي في تقديسه للأحجار والنباتات .

ولقد أشار القرآن الكريم الى ذلك ضمن جوانب الحياة الدينية التي عرفتھا العرب في العصور السابقة للإسلام والى كيفية اهتمام ابراهيم الخليل الى عبادة اله واحد ، كما جاء في قوله عز وجل (١٣) : (واذا قال ابراهيم لأبيه آزر أنتخذ أصناماً آله ؟ اني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال : هذا ربي ، فلما أفل قال : لا أحب الأفلين .

فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي ، فلما أفل قال : لئن لم يهْدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال : هَذَا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم اني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) •

وبذلك يكون ابراهيم الخليل قد تعبد لثلاثة كواكب قبيل أن يهتدي الى دين التوحيد •

واضافة الى هذه الكواكب ، هناك كواكب أخرى قدسها العربي كالدبران والعيوق ، والثريا ، والشعرى ، والمرزم ، وعطارد ، وسهيل ، فكانت كنانة تعبد القمر والدبران ، بينما كانت جرهم تسجد للمشتري ، وطىء عبدت الثريا والمرزم وسهيل ، وبعض قبائل ربيعة عبدت المرزم ، وطائفة من تميم عبدت الدبران ، وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدت الشعرى العبور ، وهي الشعرى اليمانية (١٤) ، وفيها أشار القرآن الكريم : « وأنه هو رب الشعرى) •

أما الديانات السماوية - بعد أن كان العرب على أديان ومذاهب شتى - التي كانوا يتدينون بها ، فإن أهل الأخبار يذكرون أن العرب كانوا على دين واحد هو دين ابراهيم الخليل ، دين التوحيد الذي تجسد في الاسلام فيما بعد ، وبعد دين الحنفية هذا تعلق بعض العرب بالديانة اليهودية والديانة النصرانية •

أما الديانة اليهودية فقد وجدت طريقها في كثير من مناطق شبه الجزيرة العربية ، وكان توسعها أكثر في العربية الجنوبية في ظل المملكة الحميرية الثانية بعد عام ٣٠٠ م ، ومن المعروف فإن جماعات يهودية كثيرة هاجرت الى بلاد العرب الشمالية والحجاز بعد أن دمر الرومان اورشليم سنة ٧٠ م واستقرت هذه الجماعات في يثرب وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء ، وعلى الرغم من اختلاط اليهود بالعرب وتعايشهم معهم ، واحتكاكهم لبعض الحرف والصناعات ... وعلى الرغم أيضاً من تعريضهم بحكم مجاورتهم للعرب واحتكاكهم بهم ، فإنهم لم ينجحوا في نشر اليهودية بين العرب ، ويرجع ذلك الى أسباب منها عدم اهتمامهم بالتبشير بدينهم اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله المختار ، وأن سواهم من الشعوب غير جدير بذلك (١٥) لذلك قلت تأثيرات الديانة اليهودية في الجزيرة العربية الا في فترة متأخرة قبيل الاسلام حيث ظهرت هذه الديانة بشكل واضح •

أما الديانة المسيحية فإننا نجهل تغلغلها في شبه الجزيرة العربية وكل ما ترويه الأخبار هو أن أول بعثة دينية مسيحية الى العربية الجنوبية قد أرسلها الامبراطور البيزنطي قسطنطين سنة ٣٥٦ م تحت قيادة ثيوفيلوس أندوس لأسباب سياسية ترتبط بمحاولة تسلي النفوذ البيزنطي الى اليمن في فترة اشتد فيها الصراع البيزنطي الفارسي حول السيطرة على منطقة الشرق الأوسط وتخومه (١٦) •

ومن بين أسباب انتشار المسيحية في شبه الجزيرة العربية - أيضاً - وجود بلاد العرب بين ثلاثة مراكز مسيحية مجاورة هي : سوريا ، في الشمال الغربي ، والعراق في الشمال الشرقي ، والحبشة في الغرب عن طريق البحر الأحمر ، وفي البحر عن طريق اليمن (١٧) •

وقد التجأ الانسان القديم الى هذه المعتقدات الدينية وغيرها - سواء منها الوضعية أم السماوية - وذلك حينما واجهته كثير من الاشكالات التي كانت تهدد كيانه وأمنه بصورة خاصة، عند ذاك لم يجد بداً من اللجوء الى التفكير الديني حتى يكفل له الأمن - بأنواعه المختلفة - الاقتصادي والسياسي ، والنفسي ، والمقائدي ، وبالأمن الوقائي ، الى غير ذلك من وسائل الاطمئنان المتوارثة والمكتسبة مع تفاوت بسيط في ممارسات هذه الديانات الى أن تطورت بصورة واضحة في الديانات السماوية : الحنيفية ، واليهودية ، والنصرانية .

ومما لا شك فيه أن انتقال هذه الديانات الى قلب الجزيرة العربية قد جلبت معها لونا من الاتصال الثقافي بين العرب بغيرهم من الوثنيين وأتباع الديانات السماوية وذلك لما يوجد من رابطة عضوية بين الدين والفكر ، أو « بالأحرى أن الفلسفة نشأت في صورة نقد فكري للمعتقدات الدينية والأخلاقية » (١٨) .

لقد احتل الدين على مر العصور جزءاً بارزاً من البنية الذهنية على الصعيد الفكري، فإذا كانت الديانات القديمة ، والديانة الاسلامية على وجه الخصوص تخاطب العقول في دعوتها الى التأمل والتحرر من كل الشوائب ، كما تخاطب وجدان الانسانية فان كثيراً من الاتجاهات الفلسفية تخطو في نفس المنهج فيما تحمله من قيم . ومثل عليا ، ونتيجة لذلك فان الدين في أي زمان كان لا يخلو من بذور التفكير الميتافيزيقي أو هو على حد تعبير اشبنجلر في كتابه انحلال الغرب « أنما الدين ميتافيزيقا معاشه » أو على حد ما جاء في رأي دور كايم من أن « الفلسفة نشأت دائماً في أحضان الدين أو على أثر الايمان بالدين » (١٩) .

لذلك فقد كان الدين عاملاً مهماً في ادخال الأفكار الى عقول الناس حتى أصبح هناك تداخل بين النظرة الكونية الدينية والنظرة الكونية الفلسفية . وقد تتخذ هذه النظرة الأخيرة طبعاً دينياً اذا كانت عميقة التفكير ، وهو ما جاء في رأي اشفيتسر عندما ربط بين الدين والأخلاق ، يقول : في كل عبقرية دينية يحيا مفكر أخلاقي ، وكل أخلاقي يتفلسف بعمق حقاً ، هو صاحب دين على نحو أو آخر .

وقد نذهب بعيداً في علاقة البناء العقلي بالدين - وأن كليهما يتبع الآخر - الى المعتقدات الشعبية البدائية كالأساطير الدينية والخرافات السحرية التي كانت في بداية الأمر نوعاً من التفكير العميق عند منشئها ، لأنها مزجت بين النظر العقلي والايمان الديني، وأكثر من ذلك فان الأسطورة عمادها التأمل في نظام الكون لأنها تنبع من عقل الانسان في التساؤل في وقت ما عن وجوده ، ومن حوله وكيفية نشأة هذا الكون ؟ الى غير ذلك من التساؤلات التي شغلت باله ، وكانت سبباً في خلق البذور الأولى من البناء الذهني ، أو احدى مراحل التفكير الفلسفي الأولى « فالأسطورة بهذا المعنى هي الوسيلة التي حاول الانسان القديم من خلالها أن يضيف على تجربته طابعاً فكرياً ، دون هذه الصورة الأسطورية التي تكون مجتمعة عالماً فكرياً متكاملًا ، تظل التجربة النفسية مهوشة كما تبدو الظواهر الكونية متناقضة ويمكننا أن نقول بتعبير آخر أن الأسطورة اخراج لدوافع داخلية في شكل موضوعي ، والغرض من ذلك هو حماية الانسان من دوافع الخوف والقلق » (٢٠) .

وقد يبدو من خلال الدراسات الحديثة لطبيعة الفكر العربي في تاريخه القديم أنها وصلت الى أحكام مطلقة ، نهائية نتیجتها - كما مر بنا - وصف العرب بالمادية المفرطة ، وبضعف الخيال ، وجمود العواطف «(٢١) ، وكأن هذه الأحكام غير قابلة للنقاش ، أو أنها أحكام لحقائق نهائية في نظر أصحابها .

وإذا كنا نعترض على سبل المنهج الذي اتخذه أصحابها للوصول الى هذه الحقائق فذلك لا يعني أننا نقدس العرب « ولا نعبأ بمثل هذا النمط من القول الذي يمجدهم ويصفهم بكل كمال ، وينزههم عن كل نقص ، لأن هذا النمط من القول ليس نمط البحث العلمي ، إنما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب له ميزاته وفيه عيوبه ، وهو خاضع لكل نقد علمي في عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه ككل أمة أخرى(٢٢) .

ان خصائص التفكير لكل أمة من الأمم هي انعكاس لواقعها المتطور ، بل ، هي وثيقة الصلة بمجموعة الأفكار التي يتكون منها المناخ الثقافي ، لذلك من غير المعقول أن نتصور العرب في سذاجة الشعوب البدائية من حيث المستوى الفكري - على وجه الخصوص - وذلك أمر يتناقض مع ما وصلوا اليه من حضارة ، وما عرف عنهم من أديان ، ومن آثار أدبية تمثلت خاصة في الشعر والحكمة .

ويرى مصطفى عبدالرزاق(٢٣) أنه لا يمكن أن « نقطع بأن ما يروى من هذه الأخبار صحيح ثابت ، ولكننا نرى أنه في جملته يكفي في الدلالة على وجهة التفكير الذي كان يسمى حكمة عند العرب وحكماً ، ويسمى أهله حكماء وحكاماً . وهو تفكير عملي متصل بالفصل فيما يقع بينهم من نزاع ، والفتوى فيما يحدث لهم من أقضية والطب لما يعرض لهم من مرض » .

ومن هذا كله نستطيع ألا نستبعد أن يكون هناك نوع من مستوى التفكير عند نخبة ممتازة من العرب في ثقافتها التي اكتسبتها على سبيل التجربة ، لا عن طريق التعليم أو نظرية مؤسسة ، خاصة فيما جاءت به العرب من « حكم مضارعة لحكم الفلاسفة »(٢٤) .

كما أنه بإمكان الحكمة أن ترقى الى مستوى الفلسفة لولا ظهور الحدث الجلل المتمثل في ظهور الاسلام الذي غير مجرى تفكير عقلية العربي ، ورفع من شأن مستوى معرفة العقل الانساني - عموماً - وليس معنى هذا أن القرآن كان عائقاً في نشوء الفلسفة العربية - عبر هذا التاريخ - ولكنه أعطى دفعاً جديداً في تحريره للعقلية العربية ، والعقلية الانسانية عموماً ، عن طريق المعرفة المستبصرة .

أضف الى ذلك أن المعرفة الحقة في تكوين البنية الذهنية تنبع أساساً من المعرفة الصوفية ، ثم تتبلور في ذهنية نخبة الأذكياء فتتخذ عنوان المعرفة الفلسفية ، تماماً كما حدث للفلسفة اليونانية أو لأي فلسفة أخرى نبعت في أصلها من التصورات الشعبية الى أن تطورت في شكل حكم ثم صعدت على مستوى التفكير المتطور الى ميادين العقل الخالص ، فسميت بذلك فلسفة . « وإذا نظرنا الى ما تطورت اليه صفتا الحكمة والحكماء بعد الاسلام ثم بعد نشوء الفلسفة حيث صارت الحكمة تعني الفلسفة ذاتها وصارت صفة الحكيم تعني الفيلسوف استطعنا أن

نجد مجالاً لاستنتاج أن هاتين الصفتين كانتا تعنيان في مفهومهما الجاهلي نوعاً أولياً من النظر العقلي الذي يحاول محاولة عفوية وبسيطة استخلاص أحكام عامة تصلح للانطباق على حالات لاحقة قياساً على حالات سابقة «(٢٥)» .

لذلك يمكن اعتبار الحكمة لأية أمة من الأمم أنها بداية التفكير الفلسفي ، وذلك ما وصلت إليه العرب فيما قبل الاسلام من مظاهر حياتهم العقلية ، بعيدين في تفكيرهم عن الفلسفة القائمة على نظريات وأسس علمية محكمة ، بل ، كانت نظرتهم قائمة على الخطرة الفلسفية والفرق كبير بين مذهب فلسفي له أصوله وأحكامه وبين الخطرة الفلسفية ، « فالمذهب الفلسفي نتيجة للبحث المنظم ، وهو يتطلب توضيحاً للرأي ، وبرهنة علمية ، ونقضاً للمخالفين ، وهكذا ، وهذه منزلة لم تصل إليها العرب في الجاهلية أما الخطرة الفلسفية فدون ذلك ، لأنها لا تتطلب الا التفتات الذهن الى معنى يتعلق بأصول الكون ، من غير بحث منظم وتدليل وتفنيد ، وهذه درجة وصل إليها العرب » (٢٦) .

□ الحواشي :

- ١ - راجع هذا الرأي الذي أورده ، أحمد أمين (لاولري وغيره) في فجر الاسلام ٣٦ .
- ٢ - انظر : لطفي عبد الوهاب يعيى : العرب في العصور القديمة ٤٢٦ .
- ٣ - المصدر السابق ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .
- ٤ - أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٣ .
- ٥ - د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٥٨٨ / ٦ .
- ٦ - أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٦ .
- ٧ - د. ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمه التاريخية : ١٦ ، ١٧ .
- ٨ - د. رشيد الناصوري : المدخل الى التطور التاريخي للفكر الديني ١٤٨/٣ .
- ٩ - أخبار مكة ص ٦٦ . عن الأساطير والخرافات عند العرب ١٠٦ .
- ١٠ - سورة النجم ١٩ ، ٢٠ .
- ١١ - الألوسي : بلوغ الأرب ص ١٩٧ ، ١٩٨ .
- ١٢ - انظر ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، د. السيد عبد العزيز سالم ٤٦١ .
- ١٣ - سورة الأنعام : ٧٣ - ٧٨ .
- ١٤ - انظر ، المرجع السابق ٤٧٨ .
- ١٥ - نفسه : ٤٨٥ .
- ١٦ - انظر ، العرب في العصور القديمة : د. لطفي عبد الوهاب يعيى ص ٣٩١ .
- ١٧ - د. عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية ٤٨٢ .
- ١٨ - د. جعفر آل ياسين : المدخل الى الفكر الفلسفي عند العرب دراسة في التراث ص ٤٠ .
- ١٩ - انظر : من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية : د. عبد الرحمن مرحبا ص : ٢٦٢ .
- ٢٠ - د. نبيلة ابراهيم : الاسطورة ١١ .
- ٢١ - انظر ، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٦٦/١ .
- ٢٢ - أحمد أمين : فجر الاسلام ١٤٤ .
- ٢٣ - تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ١١/١ .
- ٢٤ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١١/١ .
- ٢٥ - حسين مروة : النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ٢٩٨/١ .
- ٢٦ - أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٤٩ .